دروس من زيارة مولانا أبي الفضل العبّاس عليه السلام

آية الله الشيخ مرتضى فرج بور[1]

الملخّص: هذه المقالة تشتمل على إشارات إلى عمق حقيقة زيارة مولانا وسيّدنا أبي الفضل العبّاس عليه السلام، وهي الزيارة الواردة بسند معتبر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولها مكانتها الخاصّة والمميّزة بين زيارات أولاد الأئمّة عليهم السلام بدليل سندها المعتبر. وقد شرع كاتب هذه الدراسة بأهمّيّة مضمون ومحتوى الزيارات وضرورة الالتفات والاهتمام بها.. حتّى عدّها كنوزاً لم تحظَ حتّى الآن بالاهتمام اللّازم لاكتشافها واستخراج الحقائق والمعارف من باطنها، جدير ذكره؛ أنه قد سبق هذه الدراسة ببضع سنين، صدور كتيب من قبل العتبة العبّاسيّة اعتنى أكثر شيءٍ بالتراكيب الأدبيّة والمعاني الظاهريّة للألفاظ، وقلّ أن أولى الأبعادَ العقائديّة والمعرفيّة العميقة اهتماماً.

الكلمات المفتاحيّة: الإمام الحسين عليه السلام؛ زيارة مولانا أبي الفضل العبّاس عليه السلام؛ نصوص الزيارات؛ كربلاء.

إشارة:

هذه المقالة تتضمّن إشارات إلى أبعاد نصّ زيارة مولانا أبي الفضل العبّاس عليه السلام، وهو النصّ الوارد – بسند معتبر – عن إمامنا الصادق عليه السلام، وله المكانة المميّزة بين زيارات أولاد الأئمّة المعصومين عليهم السلام بداعي اعتبار السند، ناهيك عن المعاني والبصائر العظيمة التي تضمّنها هذا النصّ الجليل.

ولقد بذل المؤلّف المحقّق وطيلة سنين جهداً علميّاً مشهوداً فيما يرتبط بمضامين الزيارات الشريفة، رغم أنّ قليلاً من جهوده تلك قد أبصرت النور بهيئة مدوّنة. وقد بدأ المؤلّف بحثه من نقطة أهمّيّة محتويات الزيارات وضرورة الالتفات إليها والاهتمام بها.. باعتبارها كنوزاً لم تحظَ

---

١. آية الله الشيخ مرتضى فرج بور، من تلامذة آية الله السيد محمد حجة و السيد المرعشى المبرّزين وغيره من الأعلام، وهو من محقّقي عقيدة الإمامة ومن مصاحبي المرحوم العلّامة الأميني، وله مؤلّفات، مثل الفهرست الموضوعي لملحقات إحقاق الحقّ (بالعربية) وإعتبارسنجي منابع حديثي عامّه (بالفارسيّة) و... .

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

بالاهتمام اللازم والمطلوب فيما يرتبط باكتشافها واستخراج حقائقها ومعارفها.. ويشار هنا إلى أنّه وبعد سنين من تدوين هذه الدراسة ونشرها، صدر عن العتبة العبّاسيّة كتيب في هذا المضمار، وقد أولى موضوع وناحية التراكيب الأدبيّة والمعاني الظاهريّة للألفاظ أكثر اهتمامه، دون الالتفات إلى البعد العقائدي والمعرفي..

وها نحن نقدم للقارئ العزيز والمتابع الشغوف – مع التأكيد على ضرورة سبر أغوار العمق العقائدي لمحتويات هذه الزيارة الشريفة، عسى أن يكون في ذلك البلسم لمحبّي مولانا أبي الفضل عليه السلام، وعلى أمل أن تفتّح أبوابٌ من المعرفة على أرواحهم وقلوبهم الطيّبة..

الفصل الأوّل – الزيارة؛ دليل الحقائق التأريخيّة

منذ اليوم الذي صارت ما يعرف بمدرسة الخلفاء استمراراً لخطّ ومنهج الرّسالة النبويّة بين المسلمين، وتقبّلها الناس بشكل عمليّ؛ ظهرت ثقافة جديدة بعنوان «الثقافة الإسلاميّة».. وهي إلى الآن تلوح أماراتها في الكتب والمصادر؛ باعتبارها بديلاً عن الثقافة النبويّة الأصيلة، ولعلّ مراجعة بعض ملامح هذه الثقافة المستجدّة تكفي عن كلّ شرحٍ وإيضاح لكيفيّة استبدال إشراق نور الهدي النبوي بظلمة التكالب على الدنيا وسطوة الخلفاء الجبّارين.. لاحظوا النماذج أدناه:

١ – الحقيقة النورانيّة للقائد العظيم مالك الأشتر النخعي غير خافية على أحد، ويكفي وصف أمير المؤمنين عليه السلام له بقوله: «**كان لي كما كنت لرسول الله صلّى الله عليه وآله**».[١] ونظرة إلى القصائد الشعريّة المأثورة عنه[٢] تكشف عن كونه رضوان الله عليه مصداق لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**حملوا بصائرهم على أسيافهم**»[٣].

٢ – إن الشخصيّة العظيمة السامية لمولانا قمر بني هاشم؛ العبّاس بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام غنية عن التعريف والإيضاح.. فهذا القمر المنير قد اكتسب نوره الأنور من شموس الهداية الثلاث (أميرالمؤمنين والحسن والحسين سلام الله عليهم) حتّى أضحى ساطعاً في سماء الإيمان على الدوام.

١. الأردبيلي، جامع الرواة، ج٢، ص٣٧.
٢. ديوان مالك الأشتر، تحقيق وشرح المحقّق الشيخ قيس العطّار، كما ترجمه إلى الفارسيّة السيّد مرتضى الموسوي الكرمارودي، جزءان، قم، منشورات (دليل ما) ١٣٧٩ش.
٣. الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة ١٥٠.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

ولكن مؤرّخي قصور الطغاة، ولتلميع الوجوه الكالحة للأمويين.. نسبوا – ظلماً وزوراً – مقولة مضحكة مبكية للعبّاس الكبير وأنّه قالها لإخوته من أمّه (أم البنين عليها السلام) في يوم عاشوراء: أنتم لا ذرّيّة لكم.. فتقدّموا لتقتلوا فأرثكم؛ ثم أُقتل أنا ليرثكم وارثي...!![1]

حقّاً؛ لقد عطبت ذاكرة مختلقي هذه الكذبة السخيفة، حتّى أنّهم لم يفكّروا في أسئلة؛ من قبيل:

– هل يرث الأخ مع وجود الأم أساساً؟

– مع المشاركة وحضور تلكم المشاهد الدامية ومشاهدة تلكم المظلومية، هل يسع الإنسان البسيط أن يفكّر ويهتمّ بهكذا سفاهة، ناهيك عن أن يكون هذا الإنسان أبا الفضل العبّاس عليه السلام؟

– هل يمكن للفرد البسيط – بل والفرد المجرم حتّى – أن يقف مع إخوته هذا الموقف الحقير الذي نسبه وعّاط السلاطين ومؤرّخوهم إلى رجل هو – في الحقيقة – مظهر الوفاء والإيثار والتضحية بأسمى مراتبها؟

ولا ريب أنّ هؤلاء يظنّون غيرهم مثلهم، وينسبون ما يتضمّن صراع الإخوة واقتتالهم وتكالبهم على حيازة السلطة والتحكّم بمصائر الناس في أيّام معدودة – كما هي سيرة الأمين والمأمون العبّاسيَّين – إلى غيرهم، ليخفّفوا – حسب زعمهم – شيئاً من أوزارهم، ولكن بعداً لظنونهم الباطلة في أن يصدق أحدٌ هكذا كذبة فيما يتعلّق بمولانا الصدّيق أبي الفضل العبّاس عليه السلام!..

إنّ ألفاظ ومضامين الزيارات تكشف لنا الوجه المشرق والحقيقة الساطعة لهكذا رجل عظيم.

٣ – يحدّثنا التاريخ عن فرد كان يعدّ نفسه وليّ الأمر وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّه مزّق القرآن بسهامه اللعينة، فهتك حرمته، ثمّ خاطبه مستهزئاً بقوله وشعره:

إذا جئتَ ربَّك يوم حشرٍ فقل: يا ربّ مزّقني الوليد

ثمّ تفوّه بأشعار كافرة تنمّ عن حقيقته، بل وتنطق عن كفره الصريح، إذ قال:

تلعَّب بالخلافةِ هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتابُ

فأيّ ظلم أقسى تعرّض له النبيّ الأكرم الأطهر صلوات الله عليه وآله وكذا القرآن المجيد،

١. الطبري، تاريخ الطبري، وقائع سنة ٦١ هجرية.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

بحيث ينصّب هكذا شخص خليفة لنبي النور والهدى والرحمة؟!

إنّ الزيارة تؤكّد لنا أنّ مصير وموضع هكذا شخص هو الدرك الأسفل من الجحيم، وليس له حظٌّ أبداً في خلافة رسول ربّ العالمين..

٤ – ثَم عالم يدعى الغزّالي، كان صاحب كرسي في علم الأخلاق – كما كان يُدّعى – نجده يحرّم على الخطباء وأشباههم قراءة مقتل عاشوراء وكشف حقائق كربلاء تحت طائلة حفظ اللسان عن الآفات[١] وكذلك كان لا يجيز لعن إبليس ولعن يزيد[٢] وذلك حفظاً للسان وإبقائه سالماً، ذكر ذلك في كتابه المعروف بـ (إحياء العلوم).[٣]

ولكنّ زيارة أبي الفضل العبّاس عليه السلام تحدّد لنا طريق الهداية وتجنّبنا عن طريق هكذا مدّعيات باطلة شيطانيّة، وإن الزّيارة الشريفة بتعريفنا المظلوم والدفاع عنه تفضح هكذا تظاهر بالزهد.

٥ – أحد أشهر المؤرّخين، وهو شمس الدين الذّهبي، ولكن يتستّر على جرائم بني أُميّة فلا يفتضحون على رؤوس الأشهاد.. وجدناه لم يكتب عن جميع تفاصيل فجائع عاشوراء بكلّ عمقها وتأثيرها غير عشر كلمات، إذ قال: «الحسين بن علي، كاتبه أهل الكوفة، فاغترّ، وفي قصّته طول»!!!

ويكفي في تفاصيله التافهة وتشعّباته السفيهة بخصوص الأمور التاريخية الجزئيّة وغير ذات الأهمّية ليتّضح السرّ في امتناعه عن الحديث عن عاشوراء.

وعلى أيّ حال؛ فإنّ الزيارة الشريفة قد قوبلت بهكذا تكتّم جبان بعيد عن الإنصاف..

٦ – قد ارتكبت على مرّ التأريخ أسوأ وأقبح الجرائم تحت شعار (الاجتهاد)[٤]. فأضفي هذا العنوان المريب على كلّ حكم من أحكام القرآن والإسلام، بل إنّه جرى تبرير إهانة الكعبة وإحراقها ورجمها بهذا المدّعى الشيطاني[٥]، وأبعد من ذلك، جعل لهذا القبح الشنيع ثواب وأجر إلهي، إذ قيل إنّ هذا الفعل الشرّير إنّما قام به صاحبه تقرّباً إلى الله تعالى!!!

١. ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص٢٢٣.
٢. العالم المحقّق المرحوم المبرزا أبو الفضل الطهراني، ردّ على الغزالي مفصّلاً في كتابه النفيس (شفاء الصدور) وهو أفضل شروح زيارة عاشوراء المقدّسة.
٣. الغزالي، إحياء العلوم، ج٣، ص١٢٣، باب: آفات اللسان.
٤. بدعي هو التفاوت في استعمال مصطلح الاجتهاد عند الشيعة وعند مدرسة الخلفاء. فالشيعة يعنون به استنباط الأحكام الفرعيّة من الأدلّة المحكمة، أي القرآن والحديث ضمن الأطر العلميّة الرصينة، ولكن مدرسة الحكّام تطلق مصطلح الاجتهاد على كلّ فعل قام به الصحابة والتابعون؛ وإن كان مخالفاً لنصوص الكتاب والسنّة.. وقد أشار المرحوم العلّامة شرف الدين العاملي إلى نماذج من ذلك في كتاب (الاجتهاد مقابل النصّ).
٥. الأميني، الغدير، ج١٠، ص٣٤٠ - ٣٥٢.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

ولكنّ الزيارة الشريفة تفضح هذا المنحى الشيطاني على رؤوس الأشهاد، وتكشف هذه المبررات القبيحة، وتنأى بحريم الدين المقدّس عن هكذا خبائث وأقذار...

الفصل الثاني – الزيارة؛ مدرسة التربية والهداية

١ – عاش الأئمّة المعصومون عليهم السلام سنين مديدة من الضغط والضيق، دفعهم إلى ممارسة التقيّة بأشكالها والمداراة بصورها [حتّى تجاه الكثير من أتباعهم] إلى الحدّ الذي لم يمكّنهم من الإفصاح عن كثير من الحقائق، ولعلّهم كانوا يضطرّون إلى الحديث فيما فيه مصلحة المخالفين في كثير من المجالس.. ثمّ إنّهم عليهم السلام كانوا يتحيّنون الفرصة – ولعلّه لجمع أقلّ من الأفراد الموالين – للكشف عن أصل المطلب والحقيقة.. وهناك الكثير من الشواهد المؤيّدة لهذا المدّعى، وها نحن نكتفي بإيراد شاهد وحديث واحد..

قال إبراهيم الكرخي: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عليه السلام وَ إِنِّي لَجَالِسٌ عِنْدَهُ، إِذْ دَخَلَ أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام وَ هُوَ غُلَامٌ. فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقَبَّلْتُهُ وَجَلَسْتُ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَمَا إِنَّهُ لَصَاحِبُكَ مِنْ بَعْدِي. أَمَا لَيَهْلِكَنَّ فِيهِ أَقْوَامٌ وَ يَسْعَدُ فِيهِ آخَرُونَ. فَلَعَنَ اللَّهُ قَاتِلَهُ وَ ضَاعَفَ عَلَى رُوحِهِ الْعَذَابَ. أَمَا لَيُخْرِجَنَّ اللَّهُ مِنْ صُلْبِهِ خَيْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي زَمَانِهِ، سَمِيَّ جَدِّهِ وَ وَارِثَ عِلْمِهِ وَ أَحْكَامِهِ وَ فَضَائِلِهِ، وَ مَعْدِنَ الْإِمَامَةِ وَرَأْسَ الْحِكْمَةِ، يَقْتُلُهُ جَبَّارُ بَنِي فُلَانٍ بَعْدَ عَجَائِبَ طَرِيفَةٍ، حَسَداً لَهُ. وَ لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَ بَالِغُ أَمْرِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْ صُلْبِهِ تَكْمِلَةَ اثْنَيْ عَشَرَ إِمَاماً مَهْدِيّاً اخْتَصَّهُمُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ وَأَحَلَّهُمْ دَارَ قُدْسِهِ . الْمُنْتَظِرُ لِلثَّانِي عَشَرَ مِنْهُمْ كَالشَّاهِرِ سَيْفَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَذُبُّ عَنْهُ.

قَالَ: فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ مَوَالِي بَنِي أُمَيَّةَ، فَانْقَطَعَ الْكَلَامُ فَعُدْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً، أُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَتِمَّ الْكَلَامَ، فَمَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا كَانَ قَابِلُ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَ هُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! هُوَ الْمُفَرِّجُ لِلْكَرْبِ عَنْ شِيعَتِهِ بَعْدَ ضَنْكٍ شَدِيدٍ وَبَلَاءٍ طَوِيلٍ وَ جَزَعٍ وَ خَوْفٍ، فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ. حَسْبُكَ يَا إِبْرَاهِيمُ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَمَا رَجَعْتُ بِشَيْءٍ أَسَرَّ مِنْ هَذَا لِقَلْبِي وَلَا أَقَرَّ لِعَيْنِي».[1]

٢ – المسألة الثانية فيما يرتبط بتصنيف الأحاديث، حيث كان المعصومون عليهم السلام يتحدّثون بما يتناسب وقابليّة فهم ومدى إيمان مخاطبهم.. ولذا؛ فقد كانوا يدلون بأجوبة متعدّدة لسؤال واحد

١. المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٥ - ١٦، نقلاً عن كمال الدين ج ٢ ص٣٣٤.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

أحياناً. ولذا؛ فإنّ من الطبيعيّ بمكان أن يكون لمراعاة ومداراة ظرفيّة المخاطب – ولا سيّما في الموضوعات العقائديّة – تأثيراً وتحديداً للمتكلّم.. مثال ذلك.. أنّ رجلين من الأصحاب سألا الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ فتلقّيا عنه جوابين مختلفين..

وبالنظر إلى القيود المشار إليها والتي كانت تحدّد الأئمّة عليهم الصلاة والسلام فيما يرتبط ببيان الحقائق.. ترانا نلقي هنا نظرةً على متون الزيارات الشريفة..

فنقول: الزيارة كلامٌ بين معصوم ومعصوم آخر.. ولا شكَّ في أنّه لا محدوديّة تعيق المخاطب هنا، وإذا كانت الزيارة حضوريّة، مثل (زيارة أمين الله) فإنّه لا تقيّة في البين إذ الحاضرون كانوا عدّة قليلة حيث لا مشكلة تعتورهم، فإذا كانت الحالة حالة تقيّة؛ مثل (بعض زيارات سيّد الشهداء عليه السلام) أو لم تكن الزيارة زيارة حضوريّة، أو كانت تعليماً للغير؛ مثل (الزيارة الجامعة الكبيرة).. وعلى أيّ حال؛ فإنّ الإمام المعصوم الذي كان زائراً، يذكر شؤون المعصوم بحرّيّة تامّة، وهكذا؛ تتأسّس مدرسة للتربية وتعليم العقائد الحقّة بمرور السنين، وهي ما تزال متاحة للمحقّقين..

٣ – بالنسبة لعموم الأحاديث، كان الرواة غير متاح لهم أن يدوّنوا نصّ كلام المعصوم أثناء الإدلاء به، إذ الإحراجات الاجتماعية كانت في الغالب مانعاً دون التدوين التامّ؛ ولذا وجدنا كثيراً من الرواة يحفظون محتويات النصّ المعصوم ثمّ يتحيّنون الفرصة المناسبة لتحريره.. وهكذا صار في بعض الأوقات أن تنقل النصوص وتروى بالمضمون للأجيال.. وطبعاً كان الأئمّة عليهم السلام قد وضعوا شروطاً لهذه المهمّة والوظيفة، ثمّ أجازوا النقل بالمضمون ضمن تلك الشروط.. وتفصيل هذه المقولة ورد في كتب علم الحديث.. ولعلّ مردَّ بعض الاختلاف والتفاوت الموجود بين الأحاديث إلى هذه النقطة.. وكانت نصوص الأدعية والزيارات في مأمن من هذه الحالة والنقطة.. فهذه النصوص وبداعي الأهمّيّة والخطورة غير العاديّة، كانت تصل إلى أيدي الرواة التالين بعينها، حتّى لو أنّ راوياً واحداً لم يكن ليفهم معاني جميع المطالب، أو كان له رأي خاصّ، فإنّه كان يذكر ذلك ويهمّش عليه..

مصداق ذلك، أنّ السيّد ابن طاووس قد نقل دعاءً لسحر شهر رمضان، و فيه فقرة تقول: «**لا تكلني إلى نفسي فأعجز عنها**» فكتب: « أقول قد مضى في هذا الدعاء: "و لا تكلني إلى

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

نفسي فأعجز عنها" و ظاهر الحال أنه "لا تكلني إلى نفسي فتعجز عني" و لكن هكذا وجدناه فيما رأيناه».[1]

ونظير هذه الدقّة في ضبط النصّ، قد أُعمل في نصوص الأدعية و الزيارات بما يفوق بقيّة النصوص الصادرة عن المعصومين.. ولذا؛ فإنّ بين أيدينا كنزاً ثميناً جدّاً لم تعرف قيمته و لم يؤدِّ حقّه.

٤ – إنّ بناء الزيارة وعموم هيكليّتها غير منحصر بقراءة متنها من قرب أو بعد، وإنّما ذلك متعلّق بآدابها التي ينبغي أن تُراعى وتحرز – سواء قبل السفر إلى الزيارة، أو أثناءها، أو بعدها – فهي مجموعة من الآداب والأخلاق الإنسانيّة التي إن غشيت وظلّلت حياة الإنسان، أدّت إلى أن يكون له سلوك إلهي أمثل. وقد أورد كلٌّ من المحدّث النوري في كتابه (تحيّة الزائر) والشيخ عبدالله المامقاني في كتاب (مرآة الكمال) أكثر من أربعين مسألةً وأدباً يلزم بالزائر أن يحرزها..

والأمر الآخر هنا؛ أنّ بعض الزيارات؛ مثل زيارة عاشوراء وزيارة آل يس والزيارة الغديريّة (الصادرة عن مولانا الإمام الهادي عليه السلام) لم تُحدّد بزمان أو مكان خاصّين، حيث بالإمكان أن يقرأها الزائر في كلّ زمان ومكان، فيتقرّب إلى الله تعالى عبرها، ويعلن موقفه الحقيقي من سادته ومواليه أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين، وهذا الأمر المديد يضاعف عمق الزيارة ويضفي عليها ما لا يتصوّر من النفع..

وعلى هذا؛ فإنّ الزيارة عبارة عن مدرسة لصناعة الإنسان وتنزيه عقيدته وتطهير روحه وتشذيب سلوكه الطيب.. فيتعلّم فيها ومنها في كلّ يوم وفي كلّ موضع وفي كلّ حال درساً ليكون الإنسان الذي يريده الله تعالى ووليّ أمره.. وطبيعي هو القول بأنّ لازم الانتفاع من هذه الهبة الإلهيّة القيّمة؛ التأمّل في متن الزيارة، بل والعبور من ألفاظها إلى حقائقها وأبعادها وأسرارها، ويشمل ذلك رعاية وإحراز الآداب العمليّة والعلميّة وحُسن القراءة وإعمال الدقّة العلميّة فيها.. وكلّها تصاعدت نسبة الالتزام بذلك، تصاعدت نسبة انتفاع الزائر من هذه العبادة التي ما فوقها عبادة.. أعني الاتّصال الصائب بمحمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين...

٥ – إنّ أحد المحاور الأساسيّة للزيارات، بل إنّ الروح الكلّيّة للزيارات تعتمد الأصلين المهمّين

١. ابن طاووس، إقبال الأعمال، ص٨١.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

والأساسيين؛ أعني: التولّي والتبرّي.. وهذان الأصلان اللذان يجتمعان في أصل واحد.. هو الجذر والميزان الذي ترجع إليه جميع الفروع في هيكليّة النظام العقيدي والسلوكي القويم.. وهو الذي يرسم حدود الإنسان مع كلّ نمط تفكير وقول وعمل وعلاقة..

ولهذا الأصل مظهر خاص في الزيارة.. ومن هنا؛ فقد ورد في الروايات الصحيحة والمعتبرة ترجيح الزيارة على الحجّ.. وإن البعد العقليّ لهذا الترجيح يتمثّل في أنّ الإنسان لدى الحجّ إنّما يؤدّي فرعاً دينيّاً (وطبعاً إنّ جميع أجزاء الدين، بما في ذلك المستحبّات، لها أهمّيّتها بلحاظ كونها حكماً وأمراً إلهيّاً) أمّا أصل التولّي والتبرّي، فهو أصل الأصول وأهمّها.. ولا ريب أنّ نيل وتحقيق هذه النتيجة موكول إلى التأمّل في روح وآفاق الزيارة.. ويمكن القول: إنّ المعرفة التي هي روح الزيارة وما يتعلّق بقراءتها من أجر وثواب مشروط بالمعرفة، وهو – القول هذا – ناظر إلى مصداقيّة التولّي والتبرّي عقيدةً وقولاً وسلوكاً وموقفاً.

الفصل الثالث – نظرةٌ عامّة إلى زيارة المولى أبي الفضل العبّاس عليه السلام

١ – لزيارة مولانا أبي الفضل العبّاس صلوات الله عليه خصوصيّة من بين مجمل الزيارات المأثورة عن الأئمّة المعصومين سلام الله عليهم. ففي الزيارات الأخرى ثمّ خطاب موجّه من إمام معصوم إلى إمام معصوم آخر.. ولكنّنا هنا نجد نصّاً صادراً عن إمامنا الصادق عليه السلام يخاطب فيه – بكلّ أدب واحترام – عمّه العبّاس، ويوجّه أنظار الشيعة المحبّين الموالين إلى عمّه العظيم هذا وإلى أنّه ليس في عداد الأئمّة المعصومين..

فياتُرى ما الحكمة من هذا الفعل؟ هنا يخاطب الإمام عليه السلام بأدب واحترام رجلاً حباه الله تبارك وتعالى بكلّ العظمة والتوفيق؛ ولطالما حظي بمديح الإمام السجّاد صلوات الله عليه.. فهو خطاب عن رجل في منتهى العظمة قد ضحّى وآثر إمام زمانه بكلّ ما لديه؛ أعني الإمام أبا عبد الله الحسين عليه السلام ، حتّى بلغ بذلك قمّة وغاية التقرّب.. وقد أذاب أبو الفضل وجوده وذاته في إمامه.. فالتحق بالخالدين.. وأيّ خلود هذا الممتد إلى أبد الآبدين وعلى مرّ الأجيال وأشكال الحياة، وهو الناتج عن الذوبان في الأئمّة المعصومين.. أولياء الله المصطَفيْن؟! إنّ صدور وفعل التواضع من قبل شخص غير كامل؛ لا يعدُّ بالفعل العجيب والعسير، ولكن الكاملَ إذا ما تواضع، فإنّما لأنّه قد كبح نفسه وقدّمها فداءً لإمام زمانه.. وهذا هو الكمال التامّ والعسير..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

لقد كان قمر بني هاشم الذي أذاب نفسه عند شمس الشهداء و لم يتحدّث عن وجوده.. وهذا التواضع الأعظم تفيض منه وعنه دروس المعرفة ونصرة حجّة الله الحيّ على جميع الأجيال.. فهذا أبو الفضل عليه السلام من أضحى معلّم الحياة الأرقى.. معلّم يعلّم بفعله أسرار الحكمة النورانيّة المفصحة عن الطلب القائل: «**اللّهمّ عرّفني حجّتك، فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك؛ ضللتُ عن ديني**» فأضحى هذا المأثور عن العبّاس عليه السلام ذكراه الخالدة.. فبقي هذا القمر حيّاً منيراً في سماء الولاية والهداية ما دامت الشمس ماثلةً فيها.. ومعلوم أنّ هذه الحياة وهذا النور سيتجاوز أيّام الدنيا المحدودة التي لا تتّسع لاستعراض جميع الكرامات والعظمة.

٢ – قد روى نصَّ زيارة أبي الفضل العبّاس صلوات الله عليه، المحدّثُ الجليل الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه القمّيّ في كتابه النفيس (كامل الزيارات) وقد عدّ في مقدّمته على هذا الكتاب جميع رواياته موثّقة.. ويكفي هذا الاعتبار في صحّة سند الرواية.. ومع ذلك؛ لنا أن نراجع رجال السند أيضاً.

سند النصّ هو التالي: «حدّثني أبوعبد الله محمد بن أحمد بن الحسين العسكري بالعسكر، عن الحسن بن علي بن مهزيار عن أبيه عليّ بن مهزيار عن محمّد بن أبي عمير عن محمّد بن مروان عن أبي حمزة الثمالي...».

... مراجعة لرجال السند:

ألف: ابن قولويه (د. ٣٦٩ق). هو محدّث جليل، كان وأبوه من أعلام القرن الرابع، وقد اتّفق عليها المتأخّرون.[١]

ب: محمّد بن أحمد الحسين الزعفراني العسكري، المشهور بـ (ماكردويه)، المقيم ببغداد، وقد سمع التلعكبري الحديث عنه في سنة (٣٢٥ق) وأخذ عنه الإجازة.[٢]

ج: الحسن بن عليّ بن مهزيار، خضعت شخصيّته لمقام أبيه السامي، وقلّ أن ذُكر اسمه، عدّ المامقاني رواياته مقبولة قويّة.[٣]

د: عليّ بن مهزيار الأهوازي (د. ٢٢٩ق) من أصحاب الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام، ووكيل

١. الطوسي، رجال الطوسي، ص٤٥٨، الحلّي، رجال العلّامة، ص٨٨، النجاشي، رجال النجاشي، ص٣١٣.
٢. الطوسي، نفس المصدر، ص٤٤٣.
٣. المامقاني، تنقيح المقال، ج٢، ص٢٥٨.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

الإمام الهادي عليه السلام، ولا حاجة لبيان وثاقته؛ بل جلاله.[1]

هـ : محمّد بن أبي عمير الأزدي (د. ٢١٧ق) صاحب (٩٤) أصلاً معتبراً، كان سجين هارون العبّاسي أربع سنين، ليخبر عن الشيعة، فلم يفعل.. مقامه سامٍ حتّى عند غير الشيعة.[2]

و : محمّد بن مروان.. ومراد ظاهراً. محمّد بن مروان الذهلي البصري (د. ١٦١ق).[3]

ز : أبو حمزة الثمالي (د. ١٤٨ق) معاصر لعدّد أئمّة معصومين عدّوه من خواصّهم، وكان الإمام الصادق عليه السلام يعتبره سلمان زمانه.[4]

وفضلاً عن ذلك؛ فإنّ نصّ الزيارة ومضامينها العظيمة خير شاهد ودليل على صدق صدورها عن المعصوم عليه السلام.

الفصل الرابع – دروس توحيديّة من زيارة أبي الفضل عليه السلام

١ – مهما قلنا عن أهمّيّة وقيمة حقيقة التوحيد، قليلاً قلنا. ويكفي أن نستمع إلى الكلام السامي للإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه إذ قال: «**أوّل الدين معرفته**»[5] وإلى الإمام عليّ الرضا صلوات الله عليه وقوله: «**أوّل عبادة الله معرفته، وكمال معرفته توحيده**»[6] وقوله أيضاً: «**أوّل الديانة معرفته، وكمال المعرفة توحيده**».[7]

وهذه الحقيقة المقدّسة تتّضح عبر الدعاء المرويّ عن إمامين معصومين – الإمام الصادق والإمام المهدي صلوات الله عليهما – حيث قالا: «**اللّهمّ عرّفني نفسك، فإنّك إن لم تعرّفني نفسك، لم أعرف رسولك. اللّهمّ عرّفني رسولك، فإنّك إن لم تعرّفني رسولك، لم أعرف حجّتك. اللّهمّ عرّفني حجّتك، فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك، ضللت عن ديني**».

فالأصل والأساس في الوقاية من الضلال؛ معرفة الحجّة، وهي المنوطة بمعرفة الرسول، وإنّ معرفة الرسول مرتبطة بمعرفة الله عزّوجلّ. إنّ معرفة المكانة القدسيّة للتوحيد وعمق عقيدة (لا إله إلّا الله)

١. النجاشي، رجال النجاشي، ص٢٥٣، الطوسي، رجال الكشي، ج٢، ص٨٢٥.
٢. النجاشي، نفس المصدر، ص٢٥٣، الخوئي، معجم رجال الحديث، ج١٥، ص٢٨٨.
٣. الطوسي، رجال الطوسي، ص٢٩٥. رجال الخوئي، ج١٨، ص٤٣٢.
٤. النجاشي، نفس المصدر، ص١١٥. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٤٤٤. ابن النديم، الفهرست، ص٧٠.
٥. نهج البلاغة، الخطبة ١. بحار الأنوار، ج٤، ص٢٣٧.
٦. الصدوق، التوحيد، ص٣٤.
٧. نفس المصدر، ص٥٧.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

مع ما لها من الفضل، فإن تحصّلت بالسبيل الصائب.. اتّضحت خصوصيّة رسل الله وأنبيائه، لئلّا نخدع بأكاذيب مدّعي النبوّة والرسالة، من جهة؛ ولئلّا نتورّط بالتأويلات والآراء المنحرفة فيما يرتبط بمقام النبوّة، من جهة أخرى.

كما أنّ المعرفة الصحيحة بمقام النبوّة، لها أن تنير لنا طريق وخصائص الإمامة؛ لئلّا نسقط في ضلالات وألاعيب مدّعي الخلافة والقيام مقام النبيّ.. ومن ناحية أخرى لا نذهب ضحيّة في إطار تحديد وتبيين مقامات الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، فلا نسقط في ضلال سوء الفهم والغلوّ والتقصير والتأويل المنحرف..

والمسألة المهمّة هي أنّ الله تعالى سبّوح قدّوس وفي منتهى التنزيه. ولذا؛ فإنّه ليس بمستطاع أيٍّ كان أن يدّعي كونه رسولاً من الله أو نائباً لهذا الرسول (إمام) بل عليه أن يكون متسلّحاً بالعصمة ليكون آية في تنزيه الله المتعال، فيحظى بعنوان حجّة الله ويصدق عليه هذا العنوان الشريف.

إنّ الزيارة تجديد للميثاق الذي أخذه الإنسان مع الحجّة الإلهيّة، ولذا؛ فهي خطوة كبيرة ومهمّة في إقامة التوحيد وعرفانه.. وهذه الإيضاحات الموجزة تشير إلى الصلة بين التوحيد والزيارة وحكمتهما وفلسفتهما.

٢ – نقرأ في الحديث الصحيح في وصف الله المتعال: «**لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه**».[١]

ومن هذه العبارة المقتضبة يتسنّى فهم أنّ عظمة المقام الربوبي قد أغلقت أفواه جميع أولياء الحقّ.. بحيث أنّ الأنبياء والأئمّة هم وحدهم مَن لهم الحقّ أن يتكلّموا في باب التوحيد، وذلك بداعي ودليل أنّ كلامهم وحيٌ منزل: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[٢].

إنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام حائزون هذه الميزة: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[٣] وحيث أنّهم لا يسبقُ لهم على الله في القول والفعل، فقد صار كلامهم نسخةً عن ﴿**وَحْيٌ يُوحَى**﴾. ومن هنا؛ يمكن تلمّس بعض مقام وشأن عظماء يبذلون كلَّ ما عندهم لتعريف التوحيد قولاً وعملاً ولتربية الإنسان الموحّد، كما نقرأ في زيارة الأربعين الشريفة؛ إذ جاء فيها: «**وبذَلَ**

١. بحار الأنوار، ج٣، ص٣٠٤. وبهذا المضمون ورد في: الكافي للكليني، ج١، ص١٠٠، في باب «النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه».
٢. سورة النجم / ٣ - ٥.
٣. سورة الأنبياء / ٢٧.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

مهجته فيك؛ ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة».[1]

وكلّما تقدّمنا في باب معرفة التوحيد أكثر؛ ازددنا خشوعاً وتسليماً تجاه الله السبّوح القدّوس – وتبعاً لذلك – توطّدت معرفتنا وعلاقتنا بالحجج والسفراء الإلهيّين، أي: الأنبياء والأئمّة عليهم الصلاة والسلام، وإنّ أسمى درجات هذا الخشوع خاص وعائد ومتوجّه إلى النبي صلوات الله عليه وآله [وهكذا للحجّة من بعده، وهم أمير المؤمنين والصدّيقة الزهراء وأبناؤهما المعصومون سلام الله عليهم أجمعين، نظراً لأنّ ما كان لأوّلهم فهو لآخرهم.] ولذا؛ فقد ترانا نقرأ في القرآن المجيد عن هذا الخشوع وإبداء الاحترام والتقديس قوله تعالى: ﴿**لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[2]. ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾[3] ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً**﴾[4].

وإنّ هذا الخشوع والتعظيم للسفراء الإلهيين ينبغي أن يتواصل فيما بعد حياتهم الدنيويّة، وذلك أنّهم أحياءٌ وإن بدا أنّهم رحلوا عن الدنيا.. قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**يا أيّها الناس! خذوها عن خاتم النبيّين، يموت مَن مات منّا وليس بميّت**»[5].

ولهذا صار لزاماً على الزائر قبور هؤلاء العظماء أن يزورها مغتسلاً متطهّراً مشتغلاً بالأذكار الشريفة؛ ملتفتاً بكلّ وجوده إلى رحمة الحقّ. وحين يدخل الروضة الطاهرة والصحن الشريف، عليه أن يخلع نعليه ثمّ يهبط إلى تلك الأمكنة التي هي محالّ الرحمة الربّانيّة، تقديساً منه لها، وهي التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿**في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ وَيُذكَرَ فِيها اسْمُهُ**﴾[6].

٣ – إنّ مقام الإلوهيّة له العظمة التي لا تضاهى ولا توصف. حتّى أنّ العبوديّة لله عزّوجلّ أضحت ذات شرف ورفعة لا تضاهى أيضاً، وآية ذلك أنّنا نجد ربّنا المتعال في إطار حديثه عن شرف المعراج وتقريب أسمى محبوبيه؛ يصفه بكونه عبداً، فقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**﴾[7]

---

١. زيارة الأربعين.
٢. سورة الحجرات / ١.
٣. سورة الحجرات / ٢.
٤. سورة النور / ٦٣.
٥. نهج البلاغة، الخطبة ٨٧.
٦. سورة النور / ٣٦. وفي الحديث: إنّ بيت النبي وفاطمة من أفاضل تلكم البيوت (المرعشي، ملحقات إحقاق الحقّ، ج٩، ص١٣٧ و ج١٨، ص٥١٥) ونقرأ في زيارة الجامعة الكبيرة: «حتّى مَنّ علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفَعَ ويذكر فيها اسمُهُ».
٧. سورة الإسراء / ١.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[1].

وهذه العبوديّة مقدّمة على النبوّة والرسالة، ولذا؛ ترانا نشهد في صلاتنا معبوديّة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله قبل أن نشهد له بالرسالة، فنقول: «وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله» والأمر هذا سارٍ في الأنبياء الآخرين عليهم السلام.. ولطالما تحدّث الله عزّ اسمه في القرآن عن أنبيائه ورسله، فقال – فيما قال – : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[2] ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾[3] وقد روي عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام في تقديم مقام العبوديّة على مقام النبوّة والإمامة، فقال: «**إنّ اللهَ اتخّذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً**».[4]

ومن هنا؛ نجد أن زيارة الواحد من المعصومين تلقي علينا أسمى دروس العبوديّة لله تعالى.. وهكذا نمتدح الأنوار الطاهرة للمعصومين الأربعة عشر عليهم الصلاة والسلام في الزيارة الجامعة الكبيرة ونذكرهم بأنّهم العباد والعبيد لله تعالى – أي أنّهم لم يخرجوا ولو في لحظة واحدة عن مسار العبوديّة لله، أو أنّهم خرجوا عن إرادته المقدّسة – «وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

وإنّ نماذج ومصاديق هذه العبوديّة المطلقة والتامّة ظاهرة بكلّ وضوح في أقوال وأفعال المعصومين الطاهرين المطهّرين سلام الله عليهم.. ومن جملة ذلك؛ ما روي عنهم أنّهم قالوا: «**لو قلنا برأينا وهوانا إذاً لهلكنا، ولكنّها آثار من رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم»[5] فهم وارثو النبيّ الأكرم الذي وصفه القرآن المجيد بالقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[6].

فأنّ يوصف مولانا أبو الفضل العبّاس عليه السلام على لسان الإمام المعصوم بكونه عبد الله الصالح.. فإنّ لذلك أهمّيّة عظيمة، إذ قال عليه السلام: «**السلام عليك أيّها العبد الصالح؛ المطيعُ لله ولرسوله ولأمير المؤمنين والحسن والحسين**»[7].

---

١. سورة النجم / ١٠.
٢. سورة ص / ٤١.
٣. سورة ص / ٤٥.
٤. الكليني، الكافي، ج١، ص١٧٥، باب: «طبقات الأنبياء».
٥. الصفّار القمّي، بصائر الدرجات، ص٣٠٠ - ٣٠١ (أورد اثني عشر حديثاً بهذا المضمون).
٦. سورة النجم / ٣.- ٤.
٧. فمن أراد إجلال مولاه العبّاس؛ و الاقتداء به، عليه الإقرار أوّلاً و قبل كلّ شيءٍ بأنّ أبا الفضل كان عبداً حقيقيّاً و صادقاً لله تعالى، و مطيعاً لربّه و لنبيّه و لإمامه طاعةً مطلقة، و بعد الإقرار هذا، عليه أن يحذو حذوه في العبودية لربّ العالمين و طاعته، طاعةً تتمثّل في طاعة النبيّ و آله الطيبين الطاهرين باعتبارهم الحائزين على أرقى مراتب العبوديّة و الطاعة لله سبحانه و تعالى. و إن هذا النوع من المعرفة من شأنه أن ينأى بالزائر و غيره عن احتمال السقوط في الغلوّ أو البغض. المترجم.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

٤ – في وصف الله تبارك وتعالى نرى تعابير شامخة وسامية للغاية في كلام أهل البيت عليهم السلام.. مثال ذلك؛ ما نقرؤه في الدعاء السابع والأربعين من الصحيفة السجّاديّة الشريفة: «**أنتَ الذي قَصُرتْ الأوهام عن ذاتيّتك، وعجزت الأفهام عن كيفيّتك، ولم تدرك الأبصار موضعَ أيْنيّتك**». وفي هذا الدعاء الشريف نقرأ أيضاً: «**سبحانك! لا تُحَسُّ ولا تُجسُّ ولا تُمَسُّ ولا تُكاد ولا تُماط ولا تُنازع ولا تُجارى ولا تُمارى ولا تُخادع ولا تُماكر**». ونقرأ في (دعاء مشلول) أيضاً قول المعصوم عليه السلام: «**يامَن لا يعلم ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ولا حيث هو إلّا هو**». وفي دعاء الافتتاح ورد في وصفه عزّوجلّ: «**الذي بَعُدَ فلا يُرى، وقَرُبَ فشهِد النجوى تبارك وتعالى**». وهناك عشرات، بل مئات الجمل الواردة في هذا المضمون، وكلٌّ منها تفتح للباحثين عن ربّهم أبواباً من المعرفة.. ويمكن العثور على كنوز هذه المعرفة في نصوص الأدعية المأثورة عنهم عليهم الصلاة والسلام.

لقد جعل الله تعالى للناس أبواباً لتوحيده ومعرفته، وهو سبحانه أمر باتّخاذ الوسيلة إليه، إذ قال: ﴿**يأيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**﴾[1] فما هي هذه الوسيلة؟ نجد الجواب في نصّ الزيارة الجامعة الكبيرة: «**ومَن وحّده قَبِل عنكم**»؛ فلا يُعرف التوحيد إلّا من جهتكم ولا تُقبل معارفه إلّا منكم ياأهل البيت عليكم السلام.. ولكن! هل يعني هذا القول أنّ الله عزّوجلّ محدود؟ أي: ألا يمكن أن يُعرفَ الربُّ المتعال أو يُتقرّب إليه من طريق آخر؟ لا ريب في ذلك، وهو سبحانه القائل: ﴿**إنّه على كلّ شيءٍ قدير**﴾[2] ولكنّ الله نفسه الذي يريد منّا العبوديّة، قد حدّد لنا هذا الطريق فحسب.. وهذه الحقيقة من جملة التعاليم السامية النبيلة التي تضمّنتها الزيارة الجامعة.. «**أنتم... الباب المبتلى به الناس، مَن أتاكم نجا ومَن لم يأتكم هلك**..».

إنّ الله تقدّست أسماؤه الذي أعلن ذات يوم لبني إسرائيل أنّه لا يقبل عبادة أحدٍ منهم إلّا بدخوله من باب حطّة، هو نفسه لا يقبل اليوم عبادة أحدٍ إلّا إن سار ضمن صراط الأنوار الأربعة عشر.. والمؤكّد أنّ هذا الوصف وهذا الجعل الإلهي بعيد كلّ البعد عن المغالاة.. وذلك – كما هي عبارة مولانا الإمام الهادي عليه السلام في نصّ الزيارة الجامعة – : «**إن ذكر الخير كنتم أوّله وأصله وفرعه ومعدِنه ومأواه ومنتهاه**»، «**والحقّ معكم وفيكم ومنكم وإليكم وأنتم أصله**

١. سورة المائدة / ٣٥.
٢. سورة فصّلت / ٣٩.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

ومعدِنه» وهكذا على المهتمّ بطيّ مسير العبوديّة أن يلتزم هذه الأنوار الطاهرة الهادية فلا يصحّ التقدّم عليهم أو التراجع عنهم، وإنّما الملازمة لهم هي الحقّ «**فالراغب عنكم مارق، واللّازم لكم لاحق، والمقصّر في حقّكم زاهق**».

إنّ هؤلاء الرجال السماويّين قد وضعوا كنوز التوحيد بين أهل الأرض وروّجوا مفاهيم السماء. وانظروا جيّداً في الخطب التوحيديّة المطوّلة الواردة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ثمّ زنوها وقارنوها مع تراث سائر الأمم والأديان والمذاهب الأخرى، فهل ستجدون ما يدانيها في العمق والصفاء؟.. طبعاً قد تصادفون كلمات نورانيّة تسرّبت إلى ثقافات الآخرين، ولكنّها ضائعة بين ركام من السخ والسفاهة والابتذال والضلال، كمسائل تجسيم الذات الإلهيّة.. وكمثال لذلك: ما نقله الحافظ شمس الدين السخاوي – المحدّث الشهير من أبناء العامّة (د. ٩٠٢ق) – في كتابه (استجلاب ارتقاء الغرف) عن الإمام الباقر صلوات الله عليه: «**لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواسّ؛ ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات؛ منعوت بالعلامات، لا يجور في قضيّته، بان من الأشياء؛ وبانت الأشياء منه، ليس كمثله شيء**[1]، **ذلك الله الذي لا إله إلّا هو**»[2].

وقد أورد ثقة الإسلام الكليني؛ المحدّث الشيعي الشهير في القرن الثالث والرابع الهجري، وبعد مزيد الاطّلاع على المذاهب والمشارب التي كانت في تلك الفترة قد بلغت ذروتها.. أورد خطباً كثيرة في التوحيد عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام.. ثمّ إنّه رحمه الله كتب في ذيل إحدى تلك الخطب: «هَذِهِ الْخُطْبَةُ مِنْ مَشْهُورَاتِ خُطَبِهِ عليه السلام ... وَ هِيَ كَافِيَةٌ لِمَنْ طَلَبَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ إِذَا تَدَبَّرَهَا وَ فَهِمَ مَا فِيهَا؛ فَلَوِ اجْتَمَعَ أَلْسِنَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ – لَيْسَ فِيهَا لِسَانُ نَبِيٍّ – عَلَى أَنْ يُبَيِّنُوا التَّوْحِيدَ بِمِثْلِ مَا أَتَى بِهِ بِأَبِي وَ أُمِّي، مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ. وَ لَوْ لَا إِبَانَتُهُ عليه السلام مَا عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ التَّوْحِيد».[3]

... ما تقدّم، جذوة من الأحاديث النورانيّة للمعصومين الطاهرين عليهم السلام في نشر عقيدة التوحيد الحقّ، وإنّ مختصر القول لا يستوجب إيراد المزيد.

---

١. سورة الشورى / ١١.

٢. السخاوي، استجلاب ارتقاء الغرف، ج٢، ص٥٧٨، وفي تتمّة ذلك، أنّ أعرابياً سمع هذا القول، فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

٣ الكافي، ج ١ ص ١٣٦.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

٥ – يحكم العقل السليم إزاء الله المعطي جميع النعم لعباده، القائل: ﴿**وإنْ تعدّوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[١] يحكم بأن الوظيفة الأساس للعبد هي التسليم.. وإن النقل المعتبر يؤيّد هذا الحكم العقلي، ولذا قال مولى الموحّدين قال في تعريف الإسلام جملة مختصرة جدّاً: «**الإسلام هو التسليم**».[٢]

وعلى أساس هذه التعاليم، يكون مظهر وآية التسليم لله المتعال؛ التسليم إزاء النبيّ وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين. وقد قال الله سبحانه: ﴿**مَن يُطعِ الرسولَ فقد أطاع الله**﴾[٣] وهذا الوصف لا ينطبق على أيٍّ كان؛ إلّا إذا كان في قمّة العصمة.. وثَمّ آية قرآنيّة أخرى عدّت التسليم التامّ للنبيّ ملاكاً تامّاً للإيمان: ﴿**فلا وربِّك لا يؤمنون حتّى يُحكّموك فيما شَجَرَ بينَهم ثُمّ لا يجدوا في أنفسهم حَرجاً ممّا قَضَيْتَ ويسلّموا تسليماً**﴾[٤] فهل من أحد سوى رسول الله مصداق لهذا الأمر؟ لنعد الكرّة في النظر إلى القرآن الحكيم.. .

فالله الذي أضحت طاعته ملاكاً للإسلام والإيمان، ذكر طاعة الرسول وأولي الأمر في مصاف طاعته هو: ﴿**وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم**﴾[٥] ففي إزاء أولي الأمر أيضاً – كما النبيّ – يجب الخضوع والتسليم التامّ والقبول لحكمه – وهذا لازم توحيد الله.. ولا ريب في أنّه من كانت درجته في التسليم أعلى، كانت درجته في معرفة الله سبحانه أعلى.

والآن؛ وفي مدرسة الزيارات، نرى قمّة سامقة هي المصداق البارز، بل والأبرز في هذا النوع والمستوى من الطاعة والتسليم، بحيث صار صاحبها جديراً بسلام الله العظيم وملائكته المقرّبين وأنبيائه ورسله وجميع الصالحين والصدّيقين والشهداء في كلّ ليلٍ ونهار..

وذلك هو عظيم الرجال، القائد الوفيّ والمؤثر؛ حامل لواء الحسين عليه السلام في كربلاء.. قمر بني هاشم، مولانا أبو الفضل العبّاس عليه السلام، وعبارات زيارته ناطقة مفصحة عن أنّ الإمام الصادق عليه السلام قد قال بلسان الوحي محيّياً عمّه العبّاسَ الجليل:

«**سلام الله وسلام ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين وجميع الشهداء**

١. سورة إبراهيم / ٣٤، وسورة النحل / ١٨.
٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الحديث ١٢٥.
٣. سورة النساء / ٨٠.
٤. سورة النساء / ٦٥.
٥. سورة النساء / ٥٩.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

والصدّيقين والزاكيات الطيّبات فيما تغتدي وتروح عليك يابن أمير المؤمنين.. أشهد لك بالتسليم والتصديق...»؛ ومؤكّد أنّ شهادة الإمام المعصوم خليّة عن المبالغة غير المبرّرة، كما يجري في العادة على ألسنتنا.

إنّ هذه العبائر تعكس درساً عظيماً للجميع: التسليم لله وللرسول ولأهل البيت – لا سيّما إمام زمانه الحيّ – أي: لنجعل ذلك نبراساً لحياتنا لنرى كيف سنستحق وسام العزّ من لسان الوحي والعصمة...

٦ – لله المتعال أسماء حسنى، منها أسماء خاصّة بذاته المقدّسة؛ لا يسع أحداً أن يشترك فيها معه سبحانه، مثل: (الله، الصمد)، ومنها ما تعطي لبني الإنسان درساً حياتيّاً ليعملوا بمقتضاها ما استطاعوا، ويجعلوا أنفسهم في معرض إشعاعات أنوارها..

ومن هنا؛ قالوا لنا بأنّ مَن أحبّ أن يكرّس ويقوّي في نفسه تلك الخصائص، عليه أن يتوجّه إلى تلك الأسماء.[1] فمثلاً: مَن رغب أن يطلب من الله غفران ذنوبه، عليه أن يجعل من اسم (التوّاب والغفّار والغفور) ورداً للسانه، ومن أحبّ أن يحظى بنظر الله تعالى إليه، عليه أن يكثر من قول: (ياجواد). ولعلّ من الحكمة التي تقف وراء تأكيد الله تعالى على اسمي (الرحمن والرحيم) تحريض أفراد الإنسان على نشر الرحمة فيما بينهم، ليكون ذلك مجلبةً ووسيلة لاستنزال الرحمة الإلهيّة عليهم. ولذا؛ نجد القرآن الحكيم قد قال بكلّ رأفة ورحمة: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحوا ألا تُحبّونَ أن يغفرَ الله لكم**﴾[2].

وكيف ما كان؛ فإنّ أحد أسماء الله الحسنى التي يُحمد الله ويثنى عليه بها؛ اسم (الوفي)؛ فمن أراد التبرّك والانتفاع بوابل هذا الاسم الشريف المقدّس، عليه أن يكون وفيّاً بما يعاهد أبداً، لا سيّما الوفاء بعهد العبوديّة – أي: التوحيد والإمامة، فيتّخذ من هذا المسلك نبراساً في حياته.

ونعود إلى زيارة أبي الفضل العبّاس عليه السلام مرّة أخرى لنمرّ بعبارة الإمام الصادق عليه السلام: «**أشهد لك بالتسليم والتصديق والنصيحة لخلف النبيّ المرسل والسبط المنتجب...**» ولا مجال للمبالغة العاطفيّة وحديث الترف في شهادة المعصوم عليه السلام هنا..

١. في الدعاء المنسوب إلى إدريس النبيّ، على نبيّنا وآله وعليه السلام، وتؤثر قراءته في أسحار شهر رمضان... نذكر الله ربّنا بأربعين اسماً، ونطلب حاجاتنا عند ذيل كلّ اسم، متن هذا الدعاء ورد في إقبال الأعمال للسيّد ابن طاووس ج ١ ص ٨١ من الطبعة القديمة.
٢. سورة النور / ٢٢.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

فيامعدِن الوفاء لابن النبيّ الرسول! خذ بأيدينا نحن محبّوك لنتمكّن في أيّام هذه الدنيا المعدودة من الوفاء لإمام زماننا.. فننطلق في صراط العبوديّة لله سبحانه وتعالى.

٧ – في عقيدة العبوديّة، للإنسان وظائف مهمّة عليه أن يؤدّيها، وواحدة من هذه الوظائف: «إخلاص العمل لله والنصيحة لأئمّة المسلمين»؛[١] فالعبد المهتمّ بوظيفة العبوديّة، عليه أن يخلص لسيّده وربّه، وأن يضمر ويعلن الخير والبرّ لقادته المعصومين، فينفّذ الأمر الموكول إليه من قبلهم بأفضل وجه، ولا يكون مدعاةً لانزعاجهم أو غضبهم.. ومن دون أداء هذه الوظيفة والتكليف لن يصل حِمل عبوديّته مقصده.. وطبعاً؛ يحدث أن ينجز هذا التكليف بعسر؛ ولابدّ من تحمّل المصاعب الحادثة، ثمّ التوجّه إلى الله الكريم بالشكر. وذلك لابدّ من الصبر حينها، ومعلوم أنّ الصبر بحدّ ذاته توفيق يُشكر عليه...

ونقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة الخطابَ إلى المعصومين عليهم صلوات الله فيما يرتبط بالنصح: «**ونصحتم له في السرّ والعلانية**[٢]، **ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة**[٣]، **وبذلتم أنفسكم في مرضاته، وصبرتم على ما أصابكم في جنبه..**».

ومن ناحية أخرى؛ نقرأ في زيارة أبي الفضل عليه السلام عن لسان إمامنا الصادق عليه السلام: «**أشهد لك بالتسليم... والنصيحة لخلف النبيّ المرسل...**» ولهذه الشهادة قيمة عظيمة جدّاً. وإن كلمة مدح صادرة عن المعصوم بحقّ أحدٍ من الناس أسمى من مئات آلاف الكتب يحرّرها الناس، بل لا يسعنا القياس بينهما؛ وذلك أنّ الناس يكتبون ما يظنّونه ويتصوّرونه بما تذهب إليه عقولهم وعلومهم المكتسبة أو عواطفهم أو مصالحهم، في حين إنّ كلام الإمام المعصوم هو عين الوحي والحقّ والنور واليقين والعلم الإلهي.. والفاصل بينهما؛ الفاصل بين الظلام والنور.. فأيّ قياس يمكن بينهما؟!

والإمام الهادي صلوات الله عليه أورد وشرح عشرات الآيات القرآنيّة ضمن الزيارة الغديريّة السامية في مدح جدّه الأمجد، سيّد الوصيّين وإمام المتّقين عليٍّ عليه الصلاة والسلام؛ ثمّ وجدناه يقول: «**وفي مدح الله تعالى لك غنىً عن مدح المادحين وتقريظ الواصفين**». حقّاً إن الأمر

١. الكليني، الكافي، ج١، ص٤٠٣ - ٤٠٤.
٢. أي: كنتم تريدون الخير والبرّ في السرّ والعلن لأجل الله..
٣. إشارة إلى الآية (١٢٥) من سورة النحل حيث يقول تعالى لرسوله: ﴿**ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...**﴾.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

لكذلك، فحين يمدحك ربّ الشعراء ويثني عليك، فما قيمة شعر الشعراء ووصف الواصفين؟!

وهذه الحقيقة جارية سارية هنا أيضاً.. إذ ماذا يمكن أن نقول في مولانا قمر بني هاشم؛ والإمام الصادق صلوات الله عليه مَن يشهد له شهادته المقدّسة هذه؟

والدرس الآخر الذي نستلهمه من هذه العبارة؛ القيمة السامقة في قوله عليه السلام: «**النصيحة لأئمّة المسلمين**»، حيث وضع الإمام المعصوم إصبعه عليها من بين جميع فضائل أبي الفضل عليه السلام.. وهي الفضيلة التي ينبغي أن تكون منطلقاً في الأخلاق الإلهيّة – الإنسانيّة.

٨ – أنّ الله تعالى قد خلق العباد؛ وهو في غنىً عنهم جميعاً، فلا يحتاج لعبادتهم، ولا يتضرّر من معصيّتهم.. وأمير المؤمنين عليه السلام أشار في مطلع خطبة المتّقين إلى هذه الحقيقة الصادعة: «**أمّا بعد؛ فإن الله خلق الخلق حين خلقهم، غنيّاً عن طاعتهم، آمناً من معصيّتهم؛ لأنّه لا تضرّه معصية مَن عصاه، ولا تنفعه طاعة مَن أطاعه**».[١]

ومع كلّ هذا الواقع الثابت؛ فقد شبّه الله تعالى نصرة المؤمنين للدين والنبيّ بالمعونة، إذ أجرى هذا التشبيه على لسان النبيّ عيسى سلام الله على نبيّنا وآله وعليه: ﴿**قال من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله**﴾.[٢]

ومن جهة أخرى؛ وفي موازاة هذه النصرة؛ فقد وعد الله نصر ناصريه: ﴿**إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامكم**﴾[٣] والسؤال الجادّ والمهم هو: حين يكون الله في غنىً عن نصرنا، فما معنى هذه العبارات؟ ونقول: إنّ نصرة الله تعني نصرة الدين والنبيّ وسائر حججه المعصومين، فإذا ما ارتقى الإنسان إلى مقام النصرة لله، خاطب إمام زمانه بالقول: «**ونصرتي معدّة لكم ومودّتي خالصة لكم**».[٤]

وقالت الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها في خطبتها الفدكيّة الإعجازيّة بخصوص مولى الموحّدين عليه السلام: «**كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نَجَمَ قَرن الشيطان؛ وفغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخَها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه**».[٥]

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٤ (طبعة المرحوم فيض الإسلام).
٢. سورة آل عمران / ٥٢. وبهذا المضمون: سورة الصفّ / ١٤.
٣. سورة محمّد / ٧.
٤. زيارة آل ياسين.
٥. الخطبة الفدكيّة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

وهذه الميزة في مولى الموحّدين عليه السلام كانت بارزة إلى أقصى الحدود، إلى الحدّ الذي وصف بها مالكَ الأشتر رضوان الله عليه ضمن عبارة مقتضبة جامعة، فقال: «**كان** – مالك الأشتر – **لي كما كنت لرسول الله**».[1] ولقد كان حامل لواء كربلاء بالنسبة لحجّة زمانه، الإمام سيّد الشهداء كذلك؛ كما يشهد بذلك الإمام الصادق عليه السلام بقوله الكريم الحكيم:

«**أشهد وأُشهد الله أنّك مضيتَ على ما مضى به البدريّون، والمجاهدون في سبيل الله، المناصحون له في جهاد أعدائه، المبالغون في نصرة أوليائه، الذابّون عن أحبائه**».

والمسألة المثيرة هنا؛ المبالغة في نصرة الأولياء المعصومين.. والمبالغة في النصرة تشير وتوحي بمطلق النصرة، فتارة ينصر الإنسانُ ربّه بكلامه، وتارة ينصر إمامَ زمانه بماله، وتارة يضحّي بنفسه لإمامه ويفديه بروحه..

والمبالغة في هذا الأمر – وهي محمودة جدّاً وتمثّل روح العبادة – نطالعها مرّةً أخرى في زيارة مولانا أبي الفضل عليه السلام إذ جاء فيها: «**أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة وأعطيتَ غاية المجهود**» وهنا؛ جرى الحديث عن «**المبالغة في نصرة إمام زمانه**» وهذا الحديث بحدّ ذاته درس مصيريٌّ وضروريٌّ لجميع محبّي آل النور.. وهؤلاء المحبّون ينبغي أن يجعلوا من العبارة أدناه؛ الواردة ضمن الزيارة الجامعة نبراساً وشعاراً صادقاً لحياتهم: «**وقلبي لكم مسلّم، ورأيي لكم تبع، ونصرتي لكم معدّة**...».

وكذا نقرأ في زيارة مولانا أبي الفضل عليه السلام: «**وقلبي لكم مسلّم وتابع، وأنا لكم تابع، ونصرتي لكم معدّة حتّى يحكم الله وهو خير الحاكمين**»؛ ومعلوم ومؤكّد أنّ هذه العبارات ليست للقراءة فقط، ثمّ المرور منها، وإنّما قراءتها مقدّمة للإيمان والعمل.. وكما أسلفنا؛ فإن أحد أبعاد الزيارة البنّاءة معرفة القدرات، ثمّ استلهام دروس الحياة الفاضلة منهم، والخطو باتّجاه الحياة الطيّبة..

وعلى أيّ حال؛ فإنّ هذه الخصوصيّة (نصرة إمام زماننا) لا ينبغي تقويتها وتكريسها في أنفسنا فحسب؛ وإنّما يجب أن نربّي أولادنا في مسارها.. وكلام الإمام السجّاد عليه السلام الوارد في الدعاء الخامس والعشرين من الصحيفة السجّاديّة الشريفة يعلّمنا درساً تربويّاً حكيماً نتعامل به وعبره مع أولادنا: «... **واجعلهم أبرارَ أتقياء بصراء؛ سامعين مطيعين لك؛ ولإوليائك محبّين مناصحين؛**

١. جامع الرواة، ج٢، ص٣٧.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

ولجميع أعدائك معاندين ومبغضين».

وإنّ مصداق هذه المعرفة النورانيّة يمكن ملاحظته في السيّدة الكبيرة ومثال الإيثار والمعرفة؛ الصدّيقة أم البنين سلام الله عليها، إذ هي بعد استشهاد أولادها الأربعة الأبطال في ركاب إمام زمانهم.. وحين رجوع قافلة كربلاء إلى المدينة.. بادرت إلى السؤال – وقبل كلّ شيء – عن سيّد الشهداء صلوات الله عليه، دون السؤال عن أولادها ومصيرهم.. وهذا الأمر يجسّد غاية الكمال الذي لا تتّسع له عبارة ولا يحصره بيان.

بلى! ينبغي أن تتحوّل جميع الأعضاء والجوارح في الإنسان إلى عين وأذن..

فلقد أرضعت هذه السيّدة الصدّيقة أولادها لبن المعرفة والإيمان.. فخلق أبو الفضل العبّاس في يوم عاشوراء تلكم المشاهد العجيبة والمواقف الإعجازيّة.. مشاهد ومواقف أعادت إلى الذاكرة مآثر وبطولات أبيه الخالدة في ليلة المبيت الشهيرة.. هنالك حيث استلقى أمير المؤمنين عليه السلام ونام بكلّ سكينة في فراش النبيّ الأعظم صلوات الله عليه وآله، لتبقى نفسه المقدّسة وحياته الشريفة في مأمن من كلّ خطر.. وبذلك المبيت علّم الأجيال جميعاً درس اليقظة الدائمة...

وهنا؛ حيث بلغ ابن أمير المؤمنين عليه السلام الماء الزلال الجاري – وإذ كان شرب الماء حقّاً طبيعيّاً له – وذلك بعد أيّام من العطش وبعد القتال والتدافع وتحمل الحرّ والشعور الأرقى والأكمل بالمسؤوليّة على جبهة النور ورجالها ونسائها وأطفالها – ولكنّه صلوات الله عليه تذكّر عطش النساء والأطفال، وتراءت له شفتا إمام زمانه اليابسة.. فألقى بالماء على الماء.. واستولت عليه الفكرة والتصميم على كيفيّة إيصال قربة الماء التي حملها إلى أطفال الحسين وعياله..

وحيث قتل العبّاس الفرات حسرةً إذ لم يشرب منه ولو قطرة واحدة.. إلّا أنّه كان بإيثاره وحبّه لمولاه قد روى جميع عطاشى الحبّ والمعرفة من زمزم قلبه الفيّاض وروحه الكبيرة.. وهنا؛ نردّد مع إمامنا الصادق الأمين عليه السلام الخطاب للعبّاس المؤثر فنقول: «**فجزاك الله عن رسوله وعن أمير المؤمنين وعن الحسن والحسين صلوات الله عليهم أفضل الجزاء؛ بما صبرتَ واحتسبتَ وأعنْتَ، فنعم عقبى الدار**».

٩ – إنّ أحد أصول وقواعد التوحيد الثابتة والرصينة عند الإماميّة – والعل السليم يؤكّد صحّة هذا الأصل – أنّ الله عزّوجلّ لا سنخيّة ولا مشابهة له مع خلقه، وهذا ما يدعى بتباين

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

الله الخالق عن الخلق.. والإمام الرضا صلوات الله عليه قال في خطبته التوحيديّة الجليلة: «**كنهه تفريق بينه وبين خلقه، وغيوره تحديد لما سواه**»[1] فقد عدّ عليه السلام في هذه العبارة الموجزة جدّاً كنه ذات الله عزّوجلّ التفريق بينه وبين خلقه، أي أنّ أفضل تعريف لله تعالى أنّه غيرُ خلقه.. وهذه الغيريّة لابدّ من تصوّرها متفاوتة تفاوتاً أساسيّاً بين غيريّة مخلوق عن مخلوق آخر.. أي أنّه تعالى حتّى في غيريّته غيرٌ عن مخلوقاته..

وللإيضاح نقول: حين يتفاوت مخلوقان، فإنّ تفاوتهما في تفاوت حدودهما، كالتفاوت في الطول والعرض والجنس والعمق والارتفاع والقابلية واللون والقوّة وسائر العناصر والميزات، وهي جميعاً راجعة إلى تحديد وتمييز المخلوقات.. وهي السبب في التفاوت بينها.. ولكنّ غيريّة الله عن الخلق، فإنّ ما يُحدُّ هو المخلوق، وغير المحدود هو الله الخالق.. فالله تعالى ليس غير الخلق فحسب، وإنّما هو في غيريّته غير الخلق أيضاً، وهو فريد وبلا شريك وواحد أحد.. وما قدّمناه إلماعة بسيطة عن حقائق سورة التوحيد المباركة التي تعدل ثلث القرآن حقّاً، لا سيّما قوله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ وهذه الأحديّة بتمام المعاني تعكس حقيقة أنّ الإسلام له العقيدة الخاصّة بالله عزّوجلّ، التي تميّزه عن جميع الأديان والأفكار الموجودة المعروفة.. وحقّاً يجب أن يقال: مهما قلنا، فإنّنا لم نقل و لم نتحدّث عن نقطة من مئة.

وبناءً على هذا البيان، فإنّ العبد ومهما سما في مقامه، فلن يصل إلى مقام الألوهيّة أبداً، لا في هذه الدنيا المقيّدة؛ ولا في دار الآخرة حيث يتحرّر من القيود والحدود.

نؤكّد على هذه النقطة أنّه لن يصل العبد إلى مقام الربّ قطّ، بل إنّه لا يشبه الله بشيءٍ من خصوصيّاته.. وهذه المسألة تعبّر عن حقيقة مهمّة جدّاً، إذ هي من المسائل الأساسيّة التي تميّز التوحيد القرآني – حسب ثقافة أهل البيت عليهم السلام – عن النظرة البشريّة الوضعيّة للتوحيد.. هذه النظرة التي لها بيانها وتفصيلها الذي يأتي في محلّه.[2]

ولا ريب في أنّ هذا الأصل الأصيل الذي تقدّم بيانه يشمل الجميع؛ بما في ذلك الشخص الشخيص والحقيقة القدسيّة لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.. فالوجود المحمّديّ الأقدس – مع كونه الأشرف والأسمى في عالم المخلوقات، فإنّه – بالنسبة إلى الله الخالق الواحد الأحد، يبقى عبداً

١. بحار الأنوار، ج٤، ص٢٢٨.
٢. راجع: ملكي ميانجي، محمّد باقر، توحيد الإماميّة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

فقيراً محتاجاً دائماً وأبداً إلى ربّه المتعال في كلّ شيء، وإن جميع شرفه وسموّه عائد إلى قبوله العبوديّة، وهو بكل ما نال من العزّ والرفعة ومقام القرب المحمود عند الله تعالى فإنّه ملزم بالقول: ﴿**إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ**﴾[1] وهو الذي يخاطب ربّه المتعال: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً**» مع طهارته المطلقة وكمالها التامّ.

وفيما يرتبط بالعلم النبوي المحمدي، قد وردت الروايات القائلة بأنّه ﷺ مطّلع – بالتعليم الإلهي – على اثنين وسبعين حرفاً من حروف الاسم الأعظم[2] ولكنّه أُمر بطلب الزيادة كما يقول القرآن المجيد: ﴿**وقل ربّي زدني علماً**﴾[3] كما ورد في المأثور أنّ الله تعالى يزيد في علم النبيّ في ليالي الجمع وليالي القدر.. ويسري هذا الأمر في الأبعاد المعنويّة كما نقرأ في تشهّد الصلاة ونقول: «وتقبّل شفاعته وارفع درجته»، وكما نقرأ في الصلوات الصادرة عن الناحية المقدّسة المهدويّة لأبي الحسن الضراب الإصفهاني: «**اللّهمّ شرّف بنيانه، وعظّم برهانه، وأفلج حجّته، وارفع درجته**».

ولنقل جدلاً ومجرّد فرض: إنّ أدنى درجة من درجات النبيّ صلوات الله عليه وآله، ليست عصيّةً على غيره فحسب، وإنّما هي عصيّة على مخيّلة الإنسان وتصوّره أن يتخيّلها ويتصوّرها، وها نحن نقرأ في الزيارة الجامعة الكبيرة: «**فبلغ الله بكم أشرف محلّ المكرمين وأعلى منازل المقرّبين... حيث لا يلحقه لاحق... ولا يطمع في إدراكه طامع...**».

ومع كل ذلك؛ فإنّ هذه الدرجة الأعلى لها معناها في آفاق العبوديّة، وهي لا تخرج عن تلك الآفاق.. فرحاب العبوديّة وفضاؤها فيها من إمكانيّة الارتقاء التي تستوعب هذا العالم إلى منتهاه، بل هي تستوعب المراحل اللامتناهية في عالم الآخر.. فالعبوديّة تتصاعد من دون أن يخرجَ العبد عن إطار العبوديّة..

كلّ هذه المقدّمات أوردت؛ ليُطرحَ سؤال: هل أنّ الدعاء والصلوات على النبيّ وآله عليهم السلام يمكن أن يضيفا أو يضفيا عليهم درجات أعلى ويؤثّر في مقاماتهم؟

قال البعض: إنّهم صلوات الله عليهم قد بلغوا الدرجة الممكنة عند الله تعالى، وإن فائدة الصلوات على النبيّ عائدة على المصلّي.[4]

---

١. سورة الكهف / ١١٠.

٢. الكليني، الكافي، ج١، ص٢٣٠، باب: «ما أُعطي الأئمّة من اسم الله الأعظم».

٣. سورة طه / ١١٤.

٤. قد يكون هذا الرأي متأثراً بنظرية (القوة والفعل) الفلسفية التي يكون النبيّ صلوات الله عليه وآله وفي جميع الكمالات قد بلغ الفعل من القوة، ولا يسعه الارتقاء بعد ذلك.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

وقال آخرون: وهو رأي جمع من المحدّثين – منهم الشيخ المجلسي – إنّ مقام النبيّ وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين في مرحلة العبوديّة لا حدّ ولا منتهى له، كما هو الإحسان واللّطف الإلهي الذي لا حدّ له؛ ولذا، فإنّ الثواب والأجر المعنوي للصلوات يعود على المصلّي وعلى المصلّى عليه.[1]

وثَمَّ مسألة مشابهة في البين، وهي أنّه بعد صدور المديح والثناء من الإمام المعصوم عليه السلام بحقّ أبي الفضل العبّاس عليه السلام، فهل يبقى قمر بني هاشم محتاجاً إلى مديحنا وثنائنا؟

ونقول: إنّ مولانا أبا الفضل عليه السلام في غنىً عن مديحنا، ولكنّ الله يثيب مادحه بما لا يتصوّر، كما أنّ درجة قمر بني هاشم عليه السلام ترتفع عنده سبحانه لدى كلّ مرّة يمدح فيها، لا سيّما إذا كان المدح صادراً عن لسان الوحي، مضافاً إلى أنّ كلّ مرّة يكرّر فيها المديح تعطينا درساً عميقاً في الهداية، ويذكّرنا بالمعارف الضروريّة.

ونذكّر أنّ من أهمّ وظائف النبيّ هي التذكير ﴿**إنّما أنت مذكّر**﴾.[2] وهذا التذكير يختصّ تارةً بمطالب يعرفها الناس، ولعلّهم نسوها لأسباب عديدة، وتارة يشمل مطالب لابدّ للناس أن يعرفوها ولكنّهم غفلوا عنها..

إذن؛ فإنّ مطالعة حقائق هذه الزيارة – زيارة أبي الفضل العبّاس عليه السلام – وسائر الزيارات المعروفة، أمر لا ينبغي تجاهله والتساهل إزاءه، لتحقّق الأهداف النبويّة المقدّسة.

المصادر

١ – ابن حجر الهيثمي، أحمد، الصواعق المحرقة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٠٥ق.

٢ – ابن طاوس، السيّد علي، إقبال الأعمال، طبعة كراوري، طهران، دار الكتب العلميّة، ١٣٩٠ق.

٣ – ابن النديم، الفهرست، دار الكتب العلميّة، ١٤١٦ق.

٤ – الأردبيلي الحائري، محمّد بن علي، جامع الرواة، ج ٢، قم، مكتبة المرعشي النجفي رحمه الله، ١٤٠٣ق.

٥ – الأميني، عبد الحسين، الغدير، ج ١٠، الطبعة السابعة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٨٠ق.

٦ – التستري، القاضي نور الله، إحقاق الحقّ، ج ٩، ملحقات من آية الله العظمى المرعشي رحمه الله، قم، مكتبة المرعشي النجفي، ١٤٢١ق.

٧ – الحلّي، حسن، رجال العلّامة، قم، مكتبة الرضي، ١٤٠٢ق.

١. المجلسي، مرآة العقول، ج١٢، ص١١٢ - ١١٤.
٢. سورة الغاشية / ٢١.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]

٨ – الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث، ج ١٥، الطبعة الثانية، بيروت، دار الزهراء، ١٤٢٣ق.
٩ – السخاوي، محمد، استجلاب ارتقاء الغرف، ج ٢، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤٢٦ق.
١٠ – الشريف الرضي، أبو الحسن محمّد، نهج البلاغة، ترجمة و شرح علي نقي فيض الإسلام، طهران، بلا ناشر، ١٣٦٧ق.
١١ – الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، بيروت دار و مكتبة الهلال، ١٣٨٨ق.
١٢ – الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ج ٤، مؤسّسة الأعلمي، ١٤٠٦ق.
١٣ – الصفّار القمّي، حسن، بصائر الدرجات الكبرى، قم، مكتبة المرعشي رحمه الله، بلا تأريخ.
١٤ – الطبري، محمّد بن جرير، تاريخ الطبري، مصر، دار المعارف، بلا تأريخ.
١٥ – الطوسي، أبو جعفر، رجال الطوسي، النجف الأشرف، مكتبة الحيدريّة، ١٣٨١ق.
١٦ – العطّار، قيس (مصحّح و شارح)، ديوان مالك الأشتر، ترجمة السيّد مرتضى الموسوي، كرماوردي، قم، دليل ما، ١٣٧٩ق.
١٧ – الغزّالي، أبو حامد، إحياء العلوم، ج ٢، مصر، بلا ناشر، بلا تأريخ.
١٨ – الكليني، أبو جعفر، الكافي، ج ١، طهران، كتاب فروشي إسلامية، ١٣٨٨ق.
١٩ – المامقاني، عبد الله، تنقيح المقال، ج ٢٠، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٣٠ق.
٢٠ – المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ٤ و ٤٨، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢ق.
٢١ – المجلسي، محمّد باقر، مرآة العقول، ج ١٢، النجف الأشرف، دار الأضواء، بلا تأريخ.
٢٢ – ملكي ميانجي، محمّد باقر، توحيد الإماميّة، طهران، مؤسّسة نبا، ١٣٧٨ش.
٢٣ – النجاشي، أحمد، رجال النجاشي، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤١٨ق.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-07-02]